# تجليات المقاربة التاريخية
# للخطاب الأدبي القديم في الجزائر

**الطالبة: عماري فضيلة** **إشراف الأستاذ الدكتور: مختار حبار**

**جامعة أحمد بن بلة1 ـ وهران ـ الجزائر** **جامعة أحمد بن بلة1 ـ وهران ـ الجزائر**

**يعد الخطاب الأدبي القديم في الجزائر كيانا أدبيا واقعا، وصرحا شيّد منذ الماضي ليستمر إلى الحاضر، وهو سفر روحي ومعرفي في أنساق الثقافة العربية والجزائرية، تناوله الباحثون تحت سلطة المنهج التاريخي لفترة طويلة من الزمن وعبر بيئات ثقافية متنوعة، ابتداء ببيئة المدرسة الاستشراقية الفرنسية ووصولا إلى المدرسة النقدية الحديثة، وتأسس وفق ذلك منجز نقدي تاريخي كبير وجب مدارسته وتحديد معالمه وتجلياته في هذا الخطاب.**

**الكلمات المفتاحية: المقاربة؛ التاريخ؛ الخطاب الأدبي؛ الثقافة العربية؛ الاستشراق؛ النقد؛ التنوع؛ الجزائر.**

**The Manifestations of the Historical Approach to the Ancient Literary Discourse in Algeria**

**Abstract:** The ancient literary discourse in Algeria is considered as a real literary entity, and an edifice that has been constructed from the past to continue into the present. It is a spiritual and cognitive journey in the patterns of Arab and Algerian culture. Researchers have dealt with it under the authority of the historical approach, for a long period of time and across various cultural environments, starting from the environment of the French Oriental School through to the modern critical school. Accordingly to which, a great historical critical achievement was established and must be studied, looked to its features, manifestations and defined in this discourse.

**Keywords:** Approach, history, literary speech, the Arabic culture, Oriental, criticism, diversity, Algeria

**المقدمة:** لا ريب من أن المنهج التاريخي منهج سياقي خارجي، يتم تفسير الخطاب الأدبي في إطاره وفي سياقه العام بوصفه حدثا وقع في زمان ومكان معينين مع التطور عبر ذلك الزمان والمكان بادعاء أن الخطاب الأدبي لا يمكن فهمه وتفسيره ومقاربته إلا من خلال وضعه في سياقه التاريخي. وقد استهدف هذا المنهج الخطاب الأدبي القديم في الجزائر، معتمدا في ذلك على فهمه باعتباره معطى تاريخيا قبل كل شيء، متخذا من حوادثه السياسية والاجتماعية

تاريخ تسليم البحث: 21 ماي 2016.

تاريخ قبول البحث: 08 مارس 2017.

وسيلة لتفسيره وفق آليات ومحاور منهجية نابعة منه، وقد جاء تعريف التاريخ على لسان العرب لابن منظور: أنه من مادة أرخ والتأريخ أي تعريف الوقت والتواريخ مثله، وقيل أن التأريخ مأخوذ منه كأنه شيء حدث...وقالوا من الأرخ ولد البقر، وقد قيل: إن الأرخ من البقر مشتق من ذلك لحنينه إلى مكانه ومأواه".[1]

كما ورد، في تعريف ابن خلدون "في المقدمة فقال "اعلم أن فن التاريخ فن غزير المذهب جمّ الفوائد، شريف الغاية، إذ يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم حتى تتم الاقتداء في ذلك لمن يروم في أحوال الدين والدنيا". [2]

وفي الاصطلاح يعرف بأنه: المنهج الذي يوظف لنا المعلومات التاريخية في فهم الظاهرة الأدبية الإبداعية، منطلقا من عدها معطى تاريخيا قبل كل شيء، ويقوم على دراسة الظروف السياسية، الاجتماعية والثقافية للعصر الذي ينتمي إليه العمل الأدبي، متخذا من هذه الظروف وسيلة لفهمه ومقاربته وتفسير خصائصه". [3]

ولقد ظهر في العصر الحديث "بعد سيطرة مناهج العلوم الطبيعية في القرن الماضي على البحوث الفلسفية والأدبية، ، سيطرة أدت إلى ظهور الفلسفة الوضعية عند أوغست كومت، كما أدت إلى ما يمكن أن نسميه بالتاريخ الطبيعي للأدب عند طائفة من النقاد ومؤرخي العصر في مقدمتهم سانت بيف، وتين، وبرونتير". [4]

يؤمن أتباع هذا المنهج بأن الأديب ابن بيئته وزمانه، والأدب نتاج الظروف السياسية والاجتماعية التي يتأثر بها ويؤثر فيها، ليبرز بذلك أن المنهج التاريخي يقوم أساسا على دراسة العوامل المؤثرة في العمل الأدبي من خلال ارتباطها ببعدي الزمان والبيئة، "فمعرفة التاريخ السياسي والاجتماعي لازمة لفهم الأدب وتفسيره، وكثيرا ما يستحيل فهم نص أدبي قبل دراسة تاريخية عريضة، والكتب صدى لما حولها من الأمور، ونحن معرضون للخطأ في فهم وتقدير آراء الأدباء ما لم نلاحظ صلتهم بعصورهم". [5]

وقد تفرد المنجز النقدي التاريخي الذي اتخذ من الخطاب القديم حقلا للدراسة بخصوصية معينة، ارتبطت بالآليات المتبناة النابعة من المنهج ذاته، باعتباره منهجا خارجيا ظل هاجس الباحثين لفترة طويلة من الزمن، كما ارتبطت بالجو الثقافي والعلمي الذي ساد لفترات مختلفة وبيئات ثقافية متنوعة في تاريخ الجزائر.

فقد كانت الجذور الأولى لهذا النقد في العصر الحديث بمعية المدرسة الاستشراقية الفرنسية، التي حملت معها أثناء احتلال الجزائر، ترسانة من المؤرخين والباحثين المتخصصين

المنقبين عن هوية الشعب المستعمر في عملية فك لشفرات خطاب اكبر، هو الخطاب الثقافي والديني والفكري بصفة عامة.

وبتقادم الزمن، ومحاولة الفرنسيين تضييق الخناق على اللغة العربية والإسلام وتزييفه للتاريخ أزمعت فئة من المصلحين الجزائريين الرد على هجمات المستعمر الفكرية، بإصدار كتب تاريخية، حضي فيها التأريخ للخطاب الأدبي القديم جانبا من اهتماماتهم، فجاء كل من الشيخ محمد مبارك الميلي، وأعقبه تلميذه عبد الرحمن الجيلالي بأعمال يمكن تصنيفها ضمن البحث التاريخي الموجه للخطاب الأدبي القديم في الجزائر.

وبعد الاستقلال، اندرج التوجه التاريخي في مدارسة الخطاب القديم في سياق ما يعرف بكتابة التاريخ الوطني، "وهو اتجاه يرمي إلى تخليص التاريخ من الأفكار والتصورات المخلوطة، لتصفية الحساب مع ارث المدرسة التاريخية الاستعمارية. "[6]

وفي هذا المجال يبرز أبو القاسم سعد الله من خلال مؤلفاته الكثيرة وموسوعته تاريخ الجزائر الثقافي، في تصدره للدراسة التاريخية لهذا الخطاب وخصوصا في الفترة العثمانية، وعلى دربه يسير كثيرون من أمثال محمد الطمار، صاحب كتاب تاريخ الأدب الجزائري، عبد الرحمن حاجيات، العربي دحو وغيرهم كثيرون ممن غازل هذا الخطاب باحدى آليات هذا المنهج.

ثم تراجع الخط التاريخي في مدارسة الخطاب الأدبي القديم في العصر الحديث مع ثورة المناهج النسقية النصانية التي قلبت المعترك النقدي، ومع ذلك حافظ بعضهم على روح هذا المنهج إلى اليوم، فتابع جمع من الباحثين الأكاديميين بعض الدراسات التي مازالت تدور في فلك المنهج التاريخي.

وشأنه شأن الخطابات الأخرى، استهدف الخطاب الأدبي القديم في الجزائر بآلياته إذ أكدت الدراسات التي تربصت به على اتخاذ الباحثين برانية هذا الخطاب من بحث في أصوله وتحقيقها، وتحقيبه إلى عصور مختلفة، وتنظيم تاريخي لأجناسه الأدبية مع التعريف بأعلامه، مادة لفهمه وقراءته، ونتيجة لذلك تعددت مناحي المنجز وفق ما صنفناه من هذه المحاور والتي رأيناها تنتظم كالآتي:

**أولا- الخطاب الأدبي القديم في ميزان البحث عن الأصول:** يقتضي العمل التاريخي عملية سابقة ألا وهي جمع مواد المعرفة ووثائقها بالمعنى الواسع، شأنه شأن العلوم الوصفية...ويقوم بهذا العمل متخصصون يديرون الحفائر، ويحررون الفهارس والأثبات وينشرون كتب المراجع، ويحققون في أصول المصادر.

ولقد ألفينا الخطاب الأدبي القديم متصلا بهذه العملية التي أسس لها في بداية الأمر المستشرقون الفرنسيون الوافدون إلى الجزائر، والذين باشروا عملية الجمع والتصنيف

كمرحلة أولى، ثم عمليات الدراسة والتحقيق والفهرسة بعد إنشاء المجلات التاريخية المتخصصة وإنشاء جامعة الجزائر. [7]

وبصفة عامة ألفينا أهم المصادر التراثية المتصلة بالخطاب الأدبي القديم، شاخصة في أعمال هؤلاء المستشرقين، ومن بعدهم المستعربين، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، عن طريق الإخراج والتحقيق والترجمة والفهرسة في أعمال فردية أوجماعية.

فقد أُخرجت في هذا العصر وترجمت، تاريخ بشوات الجزائر لابن مفتي، الحلل السندسية للتلمساني، عجائب الأسفار لأبي راس الناصري المعسكري، رحلة الورثلاني، ورحلة ابن عمار. كما قام جمع من المستشرقين المستعربين بإنتاج أعمال ضخمة وعلى رأسهم محمدبن شنب الذي نشر رحلتي ابن عمار، الورثلاني وتحقيق كتب قيمة كعنوان الدراية للغبريني والبستان لابن مريم وقام الحفناوي بوضع قاموس تراجمه المعروف تعريف الخلف برجال السلف، وللتدليل نسوق النماذج التالية:

ففي مجال الخطاب النثري، الرحلي خصوصا، ترجم المستشرق بيير بروجي إلى اللغة الفرنسية رحلة العياشي التي نشرت تحت عنوان (voyage d'elaichi) وهذا الكتاب نشر سنة 1846 ضمن المجموعة الأولى للأعمال العلمية التي نشرت تحت رعاية الوالي العام. [8]، واهتم المستشرق موتيلانسكي بالرحلة الورثلانية المسماة نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبارفترجم الجزء الخاص بالرحلة من طرابلس إلى القاهرة ونشره في المجلة الجغرافية الجزائرية. [9]

وممن اهتموا بالرحلة الوثلانية أيضا، المستشرق ميرانت وزميله موتيلانسكي، حيث ترجموا جزءا منه سعد الله، وفي مجال الخطاب النثري عموما نشرالمستشرق ألفرد بيل، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد لأبي زكريا يحيى بن خلدون متنا وترجمة وتعليقا. [10]

أما كتاب نفح الطيب للمقري، "كان قد بدأ في نشر جزء منه في الأربعينيات من طرف DEGAYANOS في المجلة الآسيوية لكن رغبة من المستشرقين في امتلاك النص الكامل، دفعتهم إلى تشكيل جمعية لنشره في الخمسينيات فوزع العمل على أربعة منهم (dugat/dozy). كما درس نص التحفة المرضية لابن ميمون، المستشرق الفرنسي ألبير ديفوكس"[11].

أما ما قدم في مجال الخطاب الشعري متنا وأعلاما، فقد اهتمت المجلة الآسيوية بالشعر العربي عموما، ونشرت في مجال الشعر الجزائري قصيدتان الأولى لأحد أعيان الجزائر هو محمد الشاذلي قاضي قسنطينة في نزهة إلى فرنسا تحت رعاية الحكومة الفرنسية لمؤانسة الأمير عبد القادر، [12] والثانية لمحمد بن الشاهد، شاعر الجزائر العاصمة البصير المحترم وهي مرثية في احتلال الجزائر. [13]

ومن الأعمال المنجزة في إطار مشترك بين فرنسيين وجزائريين، مافعله جورج ماسيه والغوثي بوعلي في تحقيق روضة النسرين في تاريخ بني مرين، ونشرقصيدة الصيد، روضة السلوان للفجيجي، هنري جاهير ونور الدين عبد القادرفي المجلة الاسيوية العدد 4، 1923، وقد كان محمد كحول قد نشرها قبله في التقويم الجزائري الذي كان يشرف عليه. [14]

ومثلما أدت المجلة الآسيوية دورها في نشر بعض مظان الخطاب القديم، عملت المجلة الأفريقية بمعية مستشرقيها على بث الدراسات المتعلقة بما وجد من مخطوطات، ولقد أحصى الباحث محمد الصاحبي في مقالة له بعض هذه المخطوطات ودارسيها والتي من بينها. [15]

- دراسة لـ: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، لأحمد بن محمد بن علي بن حنون الشريف، قام بدراسته وترجمته المستشرق غورغيوس Gorguos، في قسم المقالات وشرحها بأنها مجموعة من القصائد متنوعة بتعليق مسهب عن صمود واستسلام مدينة وهران للأسبان.

- مقالة تحليلية للمستشرق Gorguos عن محمد بن أبي رأس بن احمد المعسكري. كما نشرت شرح مقالات الحريري للشيخ أبي رأس المعسكري، وقد أهدى هذا المخطوط إلى مكتبة الجزائر.

- دراسة لعنوان الدراية فيما مر على بجاية المعروف بعنوان الدراية: للشيخ أبي علي إبراهيم المريني البجائي، وقد ذكره فيرو شارل ضمن مقالة له بالمجلة الأفريقية

وبالإضافة إلى هذه الأعمال قام المستعربون ممن عملوا على نشر وتحقيق المظان الخاصة بالخطاب الأدبي القديم في الجزائر بدور بارز في إخراجه، ونسوق في هذا المقام، أبرزهم الشيخ محمد بن أبي شنب، الذي أسهم إسهاما لا نظير له في مجال تحقيق الخطاب الأدبي القديم والذي اخذ منه جهده لكون الدوائر الاستشراقية اهتمت بذلك.

وقد استغل بن شنب مكانته بينهم، فخدم التراث العربي بصفة عامة دراسة وتحقيقا، فترك ما يربو عن خمسين تأليفا[16]، ومن تلك الآثار التي حققها أو وضعها ونشرت في حياته: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم[17] ورحلة الورثيلاني للحسين الورثيلاني[18]، والذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية لأبي زرع[19] وعنوان الدراية فيمن عرف من علماء السابعة ببجاية[20]، والأمثال الجزائرية والمغاربية، وترجمة بعض النصوص إلى الفرنسية مثل رحلة ابن مسايب المنظومة[21].

تابع جيل مؤرخي ما بعد الثورة، ما بدأته يد الاستشراق من إخراج وتحقيق المخطوطات، لكن هذه المرة ليس من أجل الاكتشاف العلمي للجزائر، بقدر ما هو من أجل استرجاع الضائع والمفقود بسبب أيادي الاستعمار، ومن الأعمال المنجزة تحقيقا، إخراجا،

شعرا، نثرا وأعلاما، ما قام به أبو القاسم سعد الله والشيخ المهدي البوعبدلي ومحمد بن عيد الكريم وإسماعيل العربي وعبد الحميد حاجيات وغيرهم.

أما **أبو القاسم سعد الله**، الذي كان محبا للتراث الجزائري المخطوط حشد حبه العميق في تحقيق نقاش التراث الأدبي الخاص بالفترة العثمانية ومن أعماله تحقيق: . حكاية العشاق في الحب والاشتياق، لمصطفى بن إبراهيم، [22]، ورحلة ابن حمادوش الجزائري، المسماة لسان المقال في النبأ عن النسب والحال، تأليف عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري[23]، وكتاب مختارات مجهولة من الشعر العربي: وهو كتاب تضمن أشعارا لكل من احمد بن عمار، محمد بن علي وابن الشاهد[24]، كما قام **عبد الحميد حاجيات** بتحقيق الجواهرالحسان في نظم أولياء تلمسان[25]، وحقق **الشيخ المهدي البوعبدلي** كتاب الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني لابن سحنون الراشدي[26].

وحقق **محمد بن عبد الكريم**، وهو من أعلام الفكر والثقافة بالجزائر مخطوطات نفيسة من بينها فتح الاله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته لمحمد أبو راس الناصري والتحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية لمحمد بن ميمون [27]، كما نشر **محمد بن شاوش** الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد[28]، وحقق **عبد الحميد حاجيات** الجواهر الحسان في نظم أولياء تلمسان[29]، تأليف أبو مدين شعيب، أما ديوان عبد القدر الجزائري فحققه **زكريا صيام**[30]

وتحت لواء البحث عن المفقود، واسترجاع ما خربته عوائد الدهر المتتالية على الجرائر، ومجابهة تيار العولمة الثقافية الجارف، تابع جيل صاعد من الباحثين الأكاديميين إخراج وتحقيق مخطوطات الخطاب الأدبي القديم، ضمن عمل اكبر هو تحقيق مخطوطات التراث بصفة عامة.

وأمام الدفع المتزايد للدراسات التي خصت المخطوطات وما تمارسه من الملتقيات وإنشاء المجلات التراثية المتخصصة وإنشاء المخابر العلمية[31]، اتجه البحث عن الخطاب الأدبي القديم اتجاها أكثر تنظيما على الرغم من انكماش عملية الإخراج والتحقيق بسبب عزوف طلبة ما بعد التدرج عن تحقيق المخطوطات لصعوبته إلى جانب ضياع المخطوطات وتلفها.

ويعنينا هنا الأعمال المنجزة في هذا الإطار والتي نسوق منها على سبيل المثال لا الحصر: تحقيق رحلة المقري الى المشرق والمغرب محمد بن معمر، وفي المخبر ذاته حققت آل سيدي الشيخ سعاد رحلة المجاجي في رسالة ماجستير بإشراف عبد المجيد بن نعيمة 2008، كما قام الباحث بوركبة محمد في رسالته للدكتوراه باشراف بن نعيمة ايضا من تحقيق عجائب الأسفار ولطائف الاخبار للشيخ أبي راس الناصري المعسكري2007.

ومن الأعمال أيضا ما أنجز في إطار بحوث مابعد التدرج جامعة وهران، حيث حققت منظومات لغوية كثيرة بإشراف بوعناني مختار مثل شرح الأجرومية لأحمد بن علي منصور البجائي تحقيق سعاد آمنة بوعناني، وشرح الجوهر المكنون في الثلاثة فنون لعبد الرحمن الأخضري من انجاز بقدار الطاهر، إلى جانب أعمال مخبر الخطاب الأدبي، يبرز الأستاد مختارحبارمن خلال دراساته حول إخراج المتون الأدبية وتحقيقها مثل عمله الموسوم ب: الخطاب الأدبي القديم في الجزائر دراسة بيبيوغرافية، وتحقيقه لرحلة المجاجي[32].

وختاما لا يفوتنا القول بأن عملية إخراج وتحقيق المظان الأدبية القديمة عمل شاق لا يخوض غماره إلا من توفرت فيه شروط البحث في هذا المجال، وهم قلة إذ لاحضنا عزوف الباحثين عن مسار التحقيق وإن ما أنجز ضئيل جدا إذا ما قورن بما هو موجود.

**ثانيا- الخطاب الأدبي القديم في ميزان التحقيب:** يعد الخطاب الأدبي مجالا ثقافيا وحضاريا واجتماعيا خصبا تنوع بتنوع المراحل والحقب التاريخية والسياسية للجزائر، لذلك اتخذ بعضهم الأزمنة السياسية والحوادث التاريخية وسيلة لقرائته، وفي قول آخر استحضرت القراءة التاريخية للخطاب محاولة تقسيمه إلى خرائط لعصور مختلفة.

وفي مثل هذه الحالات تحضر أعمال جليلة وخالدة – وخارج دائرة النقد – جمعت هذه الأعمال بين البيئة السياسية والأدب، إذ جعلت هذه الأخيرة بمثابة ظل ينساق وراء ركب البيئة السياسية والاجتماعية، فانتظمت أبحاثهم في شكل خرائط عصور مختلفة.

ويمثل ذلك عمل الشيخ مبارك الميلي[33] في كتابه تاريخ الجزائر في القديم والحديث الجزء الثاني منه، حيث تناول فيه تاريخ الجزائر عبر العصور مبرزا الجوانب العلمية والأدبية لكل الدول التي ظهرت في الجزائر، وعلى هدي الميلي، تسير أعمال كل من عبد الرحمان الجيلالي في كتابه تاريخ الجزائر العام، الذي لا يخرج عن مسار خطته في عملية ربط الأحداث التاريخية بالواقع الأدبي وتفصيل هذا الواقع على قياسها.

ويضاف إلى ذلك كتاب محمد الطمار - تاريخ الأدب الجزائري -[34] والذي جنح فيه أيضا إلى تبني المنهج التاريخي في تناوله للأدب الجزائري وفق تقسيم خرائطه الزمنية، فقد أرخ هذا الكتاب لبداية الحركة الأدبية والثقافية فعليا في عهد الدولة الرستمية، ويتميز هذا المرجع بظاهرة التحقيب الزمني للأدب الجزائري في فترات مختلفة. ويخصص حيزا كبيرا لعرض النماذج الأدبية المنتقاة دون تحليل فني يذكر، ويقوم أيضا بالتعريف بشخصياته وقد جاءت خريطة الطمار كالآتي:

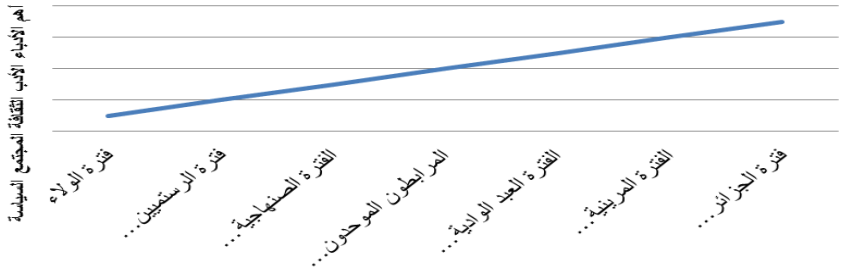


منحنى يبين خريطة محمد طمار الأدبية عبر العصور

ومن أهم الأعمال النقدية التي اتصلت بالتنظيم النوعي لخرائط العصور المختلفة، عمل الدكتور شوقي ضيف في كتابه تاريخ الأدب العربي[35]، القسم الخاص بالجزائر، حيث ربط التطور الزمني للأدب العربي بالجزائر، بإنتاج شعري ونثري، وبالأدباء الذين مثلوا هذا الإنتاج.

وباعتبار شوقي ناقدا أكثر منه مؤرخا، جاءت خريطته الزمنية للأدب الجزائري، أكثر منهجية فقد اعتمد على تصنيف الموضوعات المهيمنة في هذا الخطاب من مدح، رثاء، فخر، شعر تعليمي وتصوف، وربطها بالسياق الزمني الذي وردت فيه، مع التعريف بأهم الأعلام الذين اشتهروا في هذا الغرض الشعري أو النثري.

ولذلك جاءت خريطته الأدبية تعتمد على محورين الأول أفقي يتناول فيه أهم الأغراض المشكلة للخطاب الأدبي القديم، والثاني عمودي يمثل تطورها عبر الأزمنة المتسلسلة، ويظهر عمل ضيف تأثره بمنهج تين في النقد التاريخي الذي تبناه في موسوعته - تاريخ الأدب العربي - منذ العصر الجاهلي فهو "يعتمد على تأثره بالمدرسة الطبيعية التي اتخذت من منهج تين أساسا لتفسير التطور الأدبي، ويعتمد على أن هناك قوانين ثلاثة يخضع لها الأدب في كل أمة...فقد ربط بين البيئة والحالة السياسية والاجتماعية والأدب ربطا علميا، وبين الحدود التاريخية وحدود الأطوار التاريخية وحدود الأطوار الأدبية، وفسر الإبداعات الذاتية للشعراء"[36].

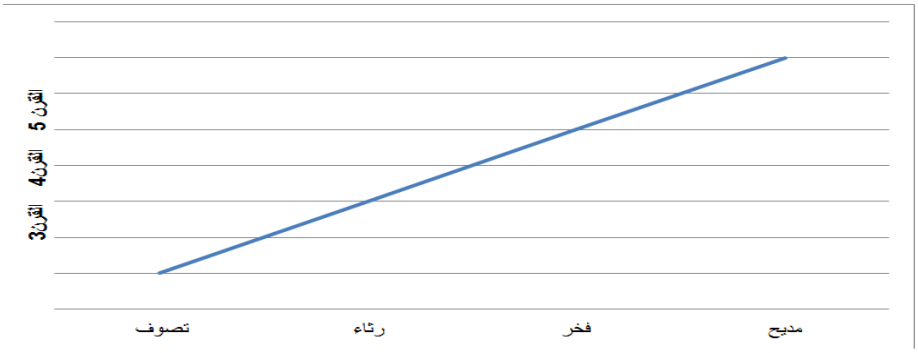


منحنى يبين خريطة شوقي ضيف الأدبية

وإذا كان شوقي قد حقب للأدب الجزائري القديم ضمن خطاب الأدب العربي بصفة عامة، فإن هناك من حقب له ضمن الخطاب المغاربي بصفة خاصة، وتنوعت في ذلك خرائطهم الزمنية ونتكتفي بذكر عناوين هذه الأعمال والتي منها: كتاب رابح بونار المغرب العربي تاريخه وثقافته[37]، العربي دحو الأدب العربي في المغرب العربي[38]، وعبد الله حمادي دراسات في الأدب المغربي القديم[39].

لقد أدى تقسيم الخطاب الأدبي إلى مراحل وفقا لتواريخ سياسية إلى بقاء الدراسات خارجية عن النص الذي هو محور العملية الابداعية، وبعيدة كل البعد عن باطن المبدع، وهذا ما دفعنا إلى الاعتقاد بوجود نتاج غيب وأسقط هفوا أو تغافلا، يجب أدراكه.

**ثالثا- الخطاب الأدبي القديم في ميزان التأريخ للأجناس الأدبية المشكلة له:** تربصت كثير من الدراسات التاريخية، بفنون شعرية ونثرية مختلفة شكلت لحمة الخطاب الأدبي القديم، واعتمدت في عملها على تقسيم أجناسه والتأريخ لها، إذ أن ثراء هذا الخطاب جعله لا يقف عند حدود الشعر والنثر فقط، بل يتجاوز إلى فنون تنضوي تحتهما، وقد تكون مشهورة أو غير مشهورة في مجال الأدب بصفة عامة.

ولا غرو من القول، بأن هذه الأعمال ركزت في البداية على فنون معروفة، سواء كانت من الفنون النثرية كفن المقامة، وفن الرحلة، وفن الرسالة، أو فنون شعرية، كالشعر الصوفي والموشحات والشعر الديني أو الاجتماعي، كما أنها اجتهدت في عرض بعض الفنون الأدبية- التي اكتسبت صفة الأدبية- بسبب خصائص معينة على الرغم من انتمائها إلى مجالات ثقافية واسعة، كفن الإجازة وفن الاستجازة، وفن التقاريظ والتعازي والإلغاز وغيرها.

ونذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر، الأعمال المنجزة حول الخطاب النثري القديم الذي مثله كل من عمر بن قينة في فن المقامة، سميرة أنساعد في فن الرحلة، لزغم فوزية فب الإجازات العلمية، مختار حبار في الشعر الصوفي وأبو القاسم سعد الله في كل هذه الفنون في الفترة العثمانية.

أرخ عمر بن قينه لفن المقامة في دوحة الأدب الجزائري كنوع أدبي أنجز بشكل ناصح إحدى الفترات من العصور الذهبية في القرن الرابع الهجري، فكان من أوائل أعلامه ابن محرز الوهراني في القرن السادس هجري (12م) [40].

أما فن الرحلة، فقد اعتنقته سميرة إنساعد في كتابها الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في التطور والبنية[41]، إلى جانب أعمال أخرى في شكل مقالات مقتضبة مستنسخة من هذا الكتاب.

ومن الأجناس الأدبية النثرية الأخرى، التي اكتسبت صفة الأدبية سبب روح العصر المحيطة به، الإجازات العلمية، بحيث أنجزت الباحثة لزغم فوزية في عملها الموسوم بـ: الإجازات العلمية في الجزائر العثمانية[42] دراسة تاريخية لإجازات العهد العثماني مع إيراد أهم الأعلام وأهم النماذج المتحصل عليها، مع تذييل بحثها بتحليل أدبي لبعض الإجازات، هو اقرب إلى التحليل المدرسي منه إلى التحليل النقدي.

كما قامت نادية داودي، بإصدار كتاب: اتجاهات النثر الجزائري 1830-1850[43]، حيث صرحت الباحثة أن غايتها من هذه الدراسة، أن تضع الصور الدقيقة لهذا النثر الجزائري في مختلف مراحله إبان هذه الفترة، وأن تبرز خصائصه الفنية من خلال النصوص، مع ذكر شواهد منه.

أما الباحث أبو القاسم سعد الله فلم يترك فنا نثريا في العهد العثماني الا وتناوله بالدراسة، كفن الترسل، فن المقامة، فن الرحلة، والإجازات...وذلك من خلال كتبه المتنوعة في تاريخ الجزائر[44].

وإذا عدنا إلى من تربص بالخطاب الشعري، والتأريخ له وفق ما تضمن من أغراض، لاحظنا غلبة الأعمال التي خصت الشعر الصوفي في الجزائر، والذي كان حقلا لأكثر من دارس، مع أن الريادة في هذا المجال كانت بلا منازع، للدكتور مختار حبار الذي مارس عليه سلطة المناهج السياقية، ممثلا في المنهج التاريخي في بدايته ثم اتبعه لسلطة المناهج النسقية في بحوثه الحديثة، وتجسد عمله هنا في دراسته الشعر الصوفي في الجزائر في العهد العثماني، دراسة موضوعية وفنية، وهو بحث مقدم لنيل شهادة الدكتوراه بإشراف محمد عبد المطلب 1991، مرفقا بملحق للدراسة حيث جمع فيه الباحث وضبط وخرّج وعرّف بأعلام هذا الشعر، وبنفس الوتيرة حاول حبار جمع ما وجده من فن التوشيح في الأدب الجزائري القديم، فعنون مقالا له بـ: مدرسة التوشيح الجزائرية في الفترة 12هـ/18م، أعلامها، مكوناتها، بناها الدلالية[45].

إن الأعمال التي أنجزت في هذا الإطار أعمال هامة وخدمت النقد الموجه للخطاب الأدبي القديم غير أننا لاحظنا بعض الهفوات، منها الاهتمام أكثر بالفترة العثمانية في دراسة الأجناس الأدبية، الاهتمام أكثر بدراسة الفنون النثرية أكثر من الشعرية، تبعية أعمال المتأخرين للنقاد الأوائل وتكرار ما جادوا به من دراسات، كما ألفينا استحواذ أبو القاسم سعد الله على النصيب الأكبر من هذه الأعمال في مؤلفاته.

**رابعا- الخطاب الأدبي القديم في ميزان التعريف بأعلامه:** يذهب المنهج التاريخي بشكل خاص للتنبيه إلى أهمية ما هو خارج النص، ومعرفة سياقاته، ولعل معرفة شخص الأديب هي أحد السياقات الخارجية التي ركز عليها ثلة من الباحثين في أعمالهم اتجاه هذا الخطاب. وترجع

جذور هذه الفكرة إلى الناقد الفرنسي سانت بيف الذي ركز على شخصية الأديب تركيزا مطلقا إيمانا منه "كما تكون الشجرة يكون ثمرها وأن النص تعبير عن منهاج فردي". [46]

وأصبح الجري وراء المؤلف شاعرا أو كاتبا من أجل فهم رسالته الفنية، أمرا لا مناص منه، بل ونادى إليه كل النقاد، كما يذهب إلى ذلك عبد الملك مرتاض عند دراسته لفن المقامة قائلا"فالنص ثمرة صاحبه، والأديب صورة لثقافته، والثقافة إفراز للبيئة والبيئة جزء من التاريخ، فإذا النقد تأريخ لبيئته". [47]

وإذا تأملنا أعمال هذا الاتجاه، وجدنا إسراف الباحثين في هذا المجال إسرافا مبالغا فيه، إذ لا يمكن حصرها جميعا، فقد يكتب حول شخصية واحدة فقط عشرة باحثين أو أكثر، متقصين أخباره من نفس المراجع والمصادر، وكمثال على ذلك شخصية عبد القادر الجزائري الصوفي، أو شخصية أحمد المقري التلمساني.

وعلى هذا الأساس ظل هاجس البحث عن شخصيات الخطاب الأدبي يشغل الكتابات التاريخية لفترة طويلة، فقد ارتبط بعملية تحقيق المخطوطات، كما ارتبط بصناعة معاجم للأدباء والشعراء، وهناك من أفرد دراسات خاصة بأديب لوحده، كما استدعت بعض الدراسات السياقية أو النسقية التذكير بصاحب الخطاب.

وقد كان السبق في هذا المجال للمستشرقين الذين عرفوا بشخصيات عديدة من خلال أعمالهم في مجال التحقيق والإخراج، فإذا عدنا إلى المجلة الإفريقية وجدنا عدة شخصيات أدبية، صوفية ورحالة مثلما فعل المستشرق Gorguos، غورغيوس في مقالة تحليلة عن محمد أبي راس الناصري المعسكري[48] أو ما قام به محمد بن أبي شنب أيضا، على سبيل المثال لا الحصر، حين حقق رحلة الشيخ الحسين بن محمد السعيد الورثيلاني، فعرف به ضمن عملية التحقيق[49]، ناهيك عن دراسات عديدة حول الأمير عبد القادر، أحمد المقري، وأبوالراس الناصري المعسكري. ولعل أبو القاسم سعد الله محقق كتب كثيرة، كما أسلفنا الذكر له باع في هذا المجال، فقد أفرد جزء من التعريف بالأدباء ضمن إخراج أعمالهم وتحقيقها مثلما فعل مع أحمد بن عمار الجزائري ومحمد بن علي وابن الشاهد في كتابه أشعار جزائرية.

وهناك من الباحثين من تخصصوا، في صناعة المعاجم، بحسب ما تتطلبه هذه الصناعة، من أجل التعريف بالشخصيات الأدبية مثل العمل الخالد لعادل النويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر[50]، وكتاب إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، المرتبة ترتيبا تاريخيا من الفتح العربي إلى عصرنا، تأليف محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان. [51] فقد تضمن 215 ترجمة لأديب جزائري و704 نصا أدبيا، ومثله كتاب أدباء وشعراء من تلمسان لبو زيان الدراجي وغيرها.

وهناك من أفرد الأعلام بدراسة خاصة عن الأديب مع التعريف به وبأدبه، مرفقا بتحليل فني لهذا الأدب إن استدعى ذلك مع التفصيل في المؤثرات الخارجية المحيطة به، فهذا باب كبير نسوق للتمثيل له بعض النماذج المنتقاة، الديسي حياته، وآثاره، وأدبه[52] لصاحبه عمر بن قينة وككتاب ابن خميس التلمساني، حياته وشعره[53] لطاهر توات وبنفس الخطة سارعبد الحميد حاجيات في كتاب أبو حمو موسى الزياني[54]، وكتاب المقري وكتابه نفح الطيب لمحمد بن عبد الكريم[55].

وألف أبو القاسم سعد الله، القاضي الأديب الشاذلي[56]، وكتاب شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية[57] وكتاب عن الرحالة عبد الرزاق بن حمادوش[58] مع العلم أنه خص ابن حمادوش ورحلته لسان المقال بمباحث في كتبه الأخرى[59]، وتراجم كثيرة لأبي راس الناصري[60]، وتراجم عن المفتي أحمد بن عمار[61].

لقد حضي التعريف بأعلام الخطاب الأدبي القديم في الجزائر، بعدد لا يستهان به من الدراسات المستقلة أو المنجزة في شكل مقالات أو المرتبطة بعملية التحقيق، وما قدمناه لا يمثل إلا غيض من فيض من هذه الدراسات، وعلى العموم اتسمت هذه القراءات بالتداعي الحر في سرد الحياة الشخصية للشاعر أو الأديب، بالتكرار والدوران حول نفسها، إلى درجة أن هؤلاء نسوا أمر النص الأدبي الذي يعتبر محور العملية الإبداعية واستهلكوا كل طاقتهم في البحث عن حياة الأديب وبيئته مع معرفتنا السابقة لها.

**الخاتمة:** خدم المنهج التاريخي الخطاب الأدبي القديم في الجزائر، إذ أكدت الدراسات التي ألمت به أنها قامت بالبحث في مخطوطاته الضائعة، وأرخت لأجناسه كما حقبته في مراحل زمنية، وعرفت بأعلامه، فأسست لما بعدها من دراسات، لكن وقع بعضها في التكرار والاجترار، والدوران حول نفسها، "والبحث في التراث لايعني لوكه واجتراره واستنساخه، لأن النسخة تظل دوما مشوهة بالقياس إلى المثال، ولأن الاجترار يعني لا تاريخية القراءة، ويعني أن البحث في التراث احتوى الباحث وصيّره كائنا تراثيا بعد أن كان كائنا له تراث"[62].

## مراجع البحث وإحالاته:

1- ابن منظور، لسان العرب، مادة أرخ.

2- عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، تحقيق، أحمد الطاهر، دار الفجر للتراث، ط1، 2004، ص21.

3- يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، جسور للنشر والتوزيع، ط1، 2007، ص15 .

4- شوقي ضيف، البحث الأدبي، ص86

5- ماهر حسن فهمي، المذاهب الأدبية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط1، 1926، ص181.

6- لوسيف سفيان، البحث التاريخي في الجزائر، نظرة تقييمية، ملخص أعمال الملتقى الوطني الأولللأبحاث والدراسات التاريخية، انظر صفحة الويب: www.fac.scienceislamique.ar.univ.batna.dz

7- للإستزادة في هذا الموضوع، يمكن الرجوع إلى تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، الخاص بالإستشراق الفرنسي..

8- اسماعيل محمد العربي الدراسات العربية في الجزائر ابان الاحتلال الفرنسي: 17، المؤسسة الوطنية للكتاب 1986

9- اهتم عدد كبير من المستشرقين بالرحلة الورثلانية وقد ذكرهم سعد الله عند الحديث عنها في كل مرة.

10- أنظر أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، ص170-171.

11- معريش محمد العربي، الإستشراق الفرنسي في المغرب والمشرق من خلال المجلة الآسيوية، ص352.

12- معريش محمد العربي، المرجع نفسه، ص163.

13- مطلع القصيدة: فآه على جهد وما به منعة وآه على دار يسود بها غيري.

14- أنظر أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، ص58-62.

15- محمد الصاحبي، المخطوطات العربية في المجلة الإفريقية، مقربة بيبيوغرافية، المقال في الموقع: www.attarikh.alarabi.com

16- أقيمت دراسات عديدة حول ابن شنب ودوره في إحياء الثقافة العربية، وللإستزادة يمكن الرجوع عبد الرحمان محمد الجيلالي، محمد بن شنب، حياته، وآثاره، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983.

17- نشر بالجزائر، 1908.

18- عنوانها: نزهة الأنظار في علم التاريخ والأخبار، نشرت في الجزائر، ص1908.

19- نشرت بالجزائر، 1921.

20- نشرت بالجزائر، 1915.

21- الشريف مربيعي، محمد بن شنب، المرجعية الثقافية والبعد الفكري، صونيام للنشر، ط2، 2013، ص193.

22- الشركة الوطنية للطبع والتوزيع 1977.

23- المسماة: لسان المقال في النبأ عن النسب والحال، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1982.

24- مختارات مجهولة من الشعر العربي، اختارها المفتي أحمد بن عمار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، وكان قد نشر بعنوان أشعار جزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب1988، ثم أعيده طبعه في إطار تلمسان عاصمة الثقافة العربية 2011

25- من طبع الشركة الوطنية للنشر وللتوزيع 1972.

26- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1987.

27- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1972.

28- المطبعة العلوية، مستغانم، 1966.

29- ديوان المطبوعات الجامعية.

30- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1974.

31- من هذه المخابر، مخبر المخطوطات بجامعة الجزائر تأسس سنة 2001، مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية لشمال إفريقيا بجامعة وهران، مخبر الخطاب الأدبي في الجزائر بجامعة وهران.

32- أنظر مختار حبار، تحقيق رحلة المجاجي، مجلة دراسات جزائرية، العدد 7-8، ص15، ص60.

33- تجدر الإشارة حول تضارب النقاد، من أجل تصنيف الميلي والجيلالي، ضمن اتجاه نقدي لم يولد بعد.
34- محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، وزارة الثقافة، الطباعة الشعبية للجيش، سنة: 2007.
35- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ج10، ط1، دار المعارف.
36- أنظر مقال عبد الرحمان الكردي، شوقي ضيف وتاريخ الأدب، منتدى البوابة.
37- رابح بونار، المغرب العربي، تاريخه وثقافته، ط3، دار الهدى، عين الميلة، الجزائر.
38- العربي دحو، الأدب العربي في المغرب العربي، من النشأة إلى قيام الدولة الفاطمية، دار الكتاب العربي، 2007.
39- عبد الله حمادي، دراسات في الأدب المغربي القديم، ط1، دار البعث للطباعة، قسنطينة، 1986.
40- عمر بن قينة، فن المقامة في الأدب العربي الجزائري، دار المعارف، باب الوادي، الجزائر، 2007.
41- سميرة انساعد، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في التطور والبنية، دار الهدى، عين الميلة، 2007.
42- لزغم فوزية، الإجازات العلمية في الجزائر العثمانية، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير، إشراف محمد بن معمر، كلية الحضارة الإسلامية، وهران، 2007.
43- نادية داودي، اتجاهات النثر الجزائري 1830-1850، دط، دت، دار الغرب للنشر والتوزيع.
44- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص .
45- أنظر دراسات جزائرية، العدد1، جوان 1997.
46- نقلا عن محمد صاحبي، المخطوطات العربية في المجلة الإفريقية، المجلد 5، العدد 26.
47- عبد المالك مرتاض، فن المقامة في الأدب العربي القديم، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، 1988، ص524.
48- محمد صاحبي، المخطوطات العربية في المجلة الإفريقية، نقلا عن المجلة الإفريقية، المجلد5، العدد26.
49- أنظر الرحلة الورثلانية: تأليف الحسين بن محمد الورثلاني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
50- صدر هذا المعجم بطبعة جديدة من وزارة الثقافة الذكرى الخمسون للاستقلال 2013، دار البصائر للنشر والتوزيع
51- صدر عن دار البصائر للنشر والتوزيع، في إطار تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية 2011.
52- صدر عن وزارة الثقافة الجزائر عاصمة الثقافة الغربية 2007
53- انظر ابن خميس التلمساني، حياته وشعره، الملكية للطباعة والنشر، ط1، 2007
54- عبد الحميد حاجيات، أبو حمو الزياني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982
55- محمد بن عبد الكريم، المقري وكتابه نفح الطيب، طبع منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.
56- أبو القاسم سعد الله، القاضي الشادلي، درس سيرته من خلال رسائله وشعره.
57- طبع بدار الغرب الإسلامي، ط1، 1986.
58- صدر عن المؤسسة الوطنية للكتاب، 1982.
59- من الدراسات التي خص بها سعد الله ابن حمادوش، مثلا كتب عنه في أبحاث وأراء، ج4، ص170-179.
60- من الدراسات التي خص بها أبي راس، أبحاث وأراء، ج1، ص83-103، وتاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص176-180.
61- من الدراسات التي خص بها أحمد بن عمار، أشعار جزائرية، أبحاث وأراء، ج5، ص 201-206.
62- عباس الجراري، المنهج الظواهري في كتاب الأدب المغربي، مجلة دعوة الحق، العدد228، أفريل، 1983.